# الجيل العربي الجديد امام مستقبله

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

البحث عن مستقبل الجيل العربي بحث مكرور دوما جديدا ابدا . وما اود ان اقول فى جدته وقدمه انه من الموضوعات التي نفضها الكتاب وطرقها الادلاء وقلبها الباحثون فلم يبقوا فيها بقية . وما كان من شأني ان اؤمن بالشنشنة القديمة : ما ترك الاول للآخر ، او ان اردد قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم ...

وحسبي فى هذا المقام ان اعيد قول الجاحظ : « من قال ما ترك الاول للآخر فاعلم انه ما يريد ان يفلح » .

الذي اريده من وصفي هذا البحث بالبحث المعاد المزجى وبالبحث الجديد البكر فى آن واحد ان انبه الى حقيقة اعمق تتصل بجوهره . اود ان اقول ان هذا البحث واحد من تلك الابحاث التي تطؤها الارجل كثيرا ، فلا يزيدها الوطء جديدا ، بل كثيرا ما يعفى على معالمها ويطمس قسماتها الحقيقية . انه من تلك الابحاث التي تتراءى بدهية لكثرة ما الفت ، والتي اصبحت مستعصية لاننا توهمناها بدهية . ألسنا اجهل ما نكون غالبا بالامور الدانية القريبة منا والتي الفناها والفتنا ؟ السنا ابعد ما نكون فهما للمسائل التي نحيا فى قلبها ونعيش فى تيارها ؟ ان جلاء الشيء يستلزم بعض البعد عنه . ولامر ما لم يفهم الانسان الحقائق القريبة منه ، حقائق نفسه ومجتمعه ، الا فى طور متأخر جدا من تاريخ الحضارة والفكر ، ولامر ما كانت نشأة العلوم النفسية والاجتماعية متأخرة فى التاريخ عن نشأة العلوم الطبيعية . ان نفسنا التي بين جنبينا ، تظل غريبة عنا لانها بين جنبينا ، وان مجتمعنا القريب منا ، يظل مستغلقا دوننا لانه مجتمعنا .

ومن هنا كان الحديث عن مستقبل الجيل العربي حديثا يحتمل دوما فضلا من البحث والتنقيب ، بل يحتمل ان يعالج من وجهة نظر جديدة . لقد طالت الفتنا له حتى كدنا نظنه واضحا فى ذاته مشرقا من نفسه . بل لقد عودتنا الفتنا له عادات فى معالجته والنظر اليه ، جعلتنا مستعبدين لاسلوب فى بحثه أظنه عقيما . وهكذا اقتفى اللاحق فى طرقه آثار السابق ، وتردى الجميع فى سكة مهدت لشد ما سارت عليها الاقدام ، فطمست حقيقة ما تحتها .

طالما قلبت الكتب التي تتعرض لمستقبل العرب ولغد العرب ، ولمشكلات العرب ، فراعني دوما ان اكثرها ينهج نهجا واحدا عقيما غالبا ، وان لها مشية واحدة لا تتعداها ، ولحنا واحدا لا تسمع غيره . وادركت تماما اننا امام واحد من تلك الموضوعات التي افسدتها الايام ، فغدت فى حاجة الى نهج فى البحث جديد . بل لا اغالي اذا قلت ان اسلوب بحثها ينبغي ان يتبع منهج الشك الديكارتي ، فيتناسى ما قيل فيها ويبدأ بدءا جديدا .

واول ما يطرحه المنهج الجديد فى البحث ان نسائل : ما معنى هذا الحديث الكثير عن المستقبل ؟ اهو حقا كما نتخيل عادة دليل اهتمام العرب بغدهم اهتماما منتجا فعالا ؟ أهو الكاشف عن يقظة العرب وتطلعهم لكيان سليم ؟

ويسوءني ان انتهي هنا الى السلب . غير اني أستدرك فأقول منذ البداية انني لا انكر البحث فى المستقبل ، بل أقدره حق قدره ، ولكني أنكر البحث فى المستقبل على النحو الذي جرت عليه اقلام اكثر الباحثين فى مستقبل الجيل العربي .

ولايضاح ما اريد ، لننتقل الى الماضي ، صنو المستقبل ، لنتبين ان البحث فى المستقبل ، رغم اتصاله بالمقبل الآتي ، كثيرا ما يكون شكلا منحرفا من الحديث عن الماضي ، بل كثيرا ما يكون قذفا للماضي الى امام ، والقاء له قدام الاعين .

ليس هنالك من ينكر شأن الماضي فى حياة الامم ، بل هو عندنا العنصر الاساسي المقوم للكيان القومي . وقد تبارى كتاب العربية فى الحديث عن قيمة الماضي وبحثه وتمثله ، وقلما انتهى الى ذلك الاحياء والتمثل ؟ الا تقرون معي ان الحديث عن الماضي وقف غالبا عند حدود التغني والتمجيد بماض لم يجله ولم يكشف معالمه ، وان جلاه ففي حدود الامور العامة التي لا تكون عقيدة علمية راسخة ؟

**« ان الايمان يقوى ويضعف ، وهو يقوى عن طريق واحد ، طريق المعاناة . فهو بالعمل والسعي ينشط ويشتد ، وهو يضعف ويهزل ان ظل كالرحى تطحن قرونا . فلنقدم للجيل العربي الجديد مجالات محدودة واضحة ينطلق فيها ايمانه ، ولنزوده بالوسائل اللازمة للعمل فى هذه المجالات »**

**ان التغني بالماضي ، والتغزل به ، اذا ظل فى نطاق التمطق بهالة غامضة من المجد ، هو فيما نعتقد دليل فقر الحاضر ، ومحاولة للتعويض عن فقر الحاضر هذا . ولا بأس ان نشد الحاضر ونبعث فيه الهمة عن طريق الماضي ،**

**غير ان البأس كله ان يصبح الماضي صورة جميلة وعالما مسحورا نأوي اليه للفرار من الحاضر ، لا لنصل بينه وبين الحاضر . البأس كله ، ان يعطلنا هذا الماضي عن العمل فنكتفي بريه ونغتذي بسرابه ، ويكون لنا ضربا من احلام اليقظة ، وننطلق فيه كالحالمين الايقاظ الذين يخيل اليهم ان احلامهم غدت واقعية** ، فيتخيلون الامور على غرار أوهامهم ، ويكون شأنهم شأن «دون كيخوت» «سرفانتس» حين يحارب طواحين الهواء ويحسبها اعداء ، ويحسب نصره عليها نصرا على الاعداء . وحين ينصب نفسه حاميا للايامى واليتامى ، ولكن في خياله ، وحين يبقر بطون الخراف ظانا انه ينتصر على الاخصام .

ان الماضي جزء من الحاضر ، وينبغي ان يصبح جزءا منه . ولا يغدو الماضي ماضيا حقا في امة من الامم ، ولا يصبح قوة موجهة موحية ، الا عندما يحقق ابناء الامة الوصل اللازم بين الماضي والحاضر .

أن لحظات الزمن لحظات متتالية متداخلة ، وكما ان اللحظة الماضية ، في حياة الفرد ، تثوي ان صح التعبير فوق اللحظة الحاضرة ، بل تركب فوق ظهرها ، وكما أن شخصية الفرد لا تتحقق الا اذا حقق هذا الاستمرار بين لحظاته الماضيات ولحظاته الحاضرات ولحظاته الآتيات ، كذلك يؤلف الماضي في كيان الامم ،شيئا اما ان يكون في صميم الخاضر واما الا يكون . ان التاريخ في حياة الامم كالذاكرة في حياة الافراد . وكما اننا لا نستطيع ان نتصور انسانا بلا ذاكرة ، لا نستطيع ان نتصور شعبا بلا تاريخ يتمثله حقا . واذا كانت شخصية الفرد هي ذاكرته قبل كل شيء ، فشخصية الامة تاريخها اولا . فالتاريخ يخرج الفرد من عزلته ، من انانيته ، ليدرك انه ليس نقطة ابتداء في الزمان . وبالتاريخ يتمثل المواطن طراز حياة الزمرة الاجتماعية التي يعيش فيها ، ويتمثل ذكريات هذه الزمرة وتقاليدها ومنازعها وروحها ، وتنمو لديه المشاعر اللازمة للتآلف مع تلكم الامور كلها بل بالتاريخ يصل الفرد الى ان يفهم نفسه . فكل كائن يعيش منذ ولادته في ارض ما ، وسط مشاهد عديدة وطراز من الحياة خاص ، مستخدما لغة معينة ، مؤتلفا مع عادات وتقاليد كلها من نتاج التاريخ . واذا هو ظل في نطاق الحياة العملية المباشرة لم يأخذ تآلفه مع بيئته شكلا واعيا ، وكان اشبه بتآلف الحيوان مع بيئته الطبيعية . اما اذا اقبل على فهم التاريخ الذي يفسر له اطار حياته ووجوده استطاع ان يدرك ويعي هذا الكائن الاجتماعي القومي الذي يحمله في نفسه ، وان ينتقل من الحياة العملية الى مستوى الشعور التاريخي بوجوده ، واستطاع ان يفهم تلك الافكار والمشاعر والعادات التي يجري عليها والتي هي من مخلفات المجتمع ، انتقلت اليه وعاشت في نفسه .

ولكن هذه الغايات كلها لا تتحقق في التاريخ اذا ظل كما هو عندنا غالبا ، تاريخا بعيدا عنا ، كأنه في عالم آخر او لدى امة اخرى . والحديث عن التاريخ ينقلب الى شر مستطير عندما يغدو تغنيا بمرحلة زمنية ، ندرك حلقة واحدة من حلقاتها او بعض حلقاتها ولا ندرك تتابع تلك الحلقات على مر العصور واتصال هذه الحلقات بالحلقة الاخيرة منها ، نعني الحاضر ، وهو يغدو اشد خطرا عندما يكون حديثنا عن تلك الحلقة او عن تلك الحلقات المعدودة المتفككة ، التي نعدها انصع الحلقات وابهجها ، حديثا غائما، ليس فيه الوضوح العلمي اللازم ، ولا فيه المعرفة البينة بملامحها وقسماتها .

لقد كان الغربيون في عهد مضى ينظرون الى القرون الوسطى عندهم نظرتهم الى عصر اسود مظلم . بل الى مرحلة انقطاع في تاريخهم ، يمكن ان تهمل وتترك . غير أنهم منذ امد ليس ببعيد بدأوا يدركون ان من غير الجائز ان تعتبر اي فترة زمنية من حياة الامة جانبا مهملا ، مهما يرن عليها من سوء . فأخذوا يعنون بدراسة العصر الوسيط دراسة تفصيلية ، بل ذهبوا الى ابعد من هذا ، فاخذوا يبينون ان العصر الوسيط ليس ذلك العصر الاسود المظلم الذي انتقص من قدره الباحثون ، ولا هو بالحلقة الشاذة من حلقات التاريخ ، وانما هو جزء لا يتجزأ من تاريخ الحضارة الغربية ، وبدونه لا يمكن ان تفهم تلك الحضارة . وهكذا انصرفوا الى احياء ذلك العصر، ودراسته دراسة واعية ، وكثيرا ما استخرجوا منه ما ليس فيه ، ليحققوا التواصل بينه وبين العصور الحديثة ، وهذا هو ما فعله كتاب المسيحية خاصة . ومن هنا نقرأ اليوم تاريخ ذلك العصر في بعض الكتب الغربية ، فاذا بنا نطلع على دراسة منظمة تستخرج روحه وتجعل من هذه الروح حلقة اساسية في روح الحضارة الحديثة .

**اما تاريخنا ، على روعته ، لاسيما اذا قيس بالعصور الوسطى الاوربية ، فقد أصابه حيف كبير واهمال ضخم .** ويرجع ذلك الى عاملين : اولهما يتصل بنا ، والثاني يتصل بالكتاب الاعاجم .

أما نحن فقد اكتفينا ، كما قلنا ، بالحديث غالبا عن ذلك الماضي حديثا عاما ، دون ان نعرف سيرته الحقة . وقلما أتيح لنا ان ننبش ما فيه ، وان ننظر الى مخلفاته نظرة علمية مدققة . ان في تاريخنا جوانب كثيرة ، يمكن ان تكون بذورا حقيقية للعلم الحديث ويمكن ان تتحقق الصلة بينها وبين ما نعلمه ونتعلمه اليوم من حضارة العرب في الفلسفة او الجغرافيا او الفلك او الرياضيات او التاريخ او علم الاجتماع او علم النفس ، عد ذلك امرا يتعلق بخاصة الخاصة غالبا ، بل نظر اليه على انه ضرب من الاقتسار المقصود .

والحقيقة بعيدة عن هذا الموقف. واننا على مثل اليقين بأن ما اكتشف من تراث العرب العلمي ، على قلة ذيوعه بيننا ، غيض من فيض مما يمكن ان يكتشف ، دون ان يكون في ذلك اقتسار او كلفة . ولنضرب مثالا عابرا يتصل بتجربة شخصية : لقد كنت ادرس خلال سنوات ، بالجامعة السورية ، الى جانب التربية علم النفس . وكنت اعاني من

تدريس هذا العلم الاخير أزمة عميقة . لقد طرح علي تدريسه مشكلة وجودنا العربي فى أعنف صورها . لقد تساءلت : كيف استطيع ان اجعل من تدريس هذا العلم شيئا غير مستورد فحسب ، شيئا يشعرمعه الطالب ان حقائقه ليست بعيدة عن حياته العربية وعن تراثه ؟ وما هي السبيل الى اقامة الوصل اللازم بين الدراسات العربية الاخرى التي يتلقاها الطلاب وبين هذا العلم الحديث ، علم النفس ؟ وقد قادني هذا التساؤل الى البحث والتنقيب فى تراث العرب . وأؤكد انني كنت ، كأكثر الناس ، على جانب من الشك فيما اقبلت عليه . ولكن كم كانت فرحتي عندما عثرت على امور وامور ، تتصل بحقائق نفسية منظمة علمية جاء بها أجدادنا العرب . وما كان يخيل الي من قبل اني سأعثر على ما عثرت عليه من حقائق تتصل بالتوجيه المهني لدى العرب ، وبالامراض النفسية ، وبالاحلام . ما كان يخطر لي على بال ان أجد فى ذلك الكتاب الاصفر الذي طالما نظرت اليه شزرا فى مكتبة والدي ، كتاب ابن سيرين فى تفسير الاحلام ، حقائق ومعاني تضاهي ما نجده لدى أئمة الباحثين المحدثين عن هذه الاحلام . ولا يتسع المجال لاتحدث عن بعض تلك المعاني ، ولعل لي اليها عودا .

**وكل ما اود ان اخلص اليه اننا مقصرون فى حق تاريخنا، واننا نكتفي غالبا بالتغني بجماله ، دون ان نستخرج هذا الجمال كأننا نحسب قيمة اللؤلؤ المكنون فى الصدف .**

واسباب هذا التقصير ترجع فيما ترجع الى العامل الثاني الذي اشرت اليه ، نعني ما يتصل بالكتاب الاعاجم

لقد كتب تاريخنا كثير من هؤلاء الكتاب الاعاجم لغايات فى نفوسهم ، وجروا فى تقويمه على غير السنة العلمية التي اتبعوها فى دراسة تاريخهم . لقد اشرنا منذ قليل الى المنهج الذي اتبعوه فى دراسة العصر الوسيط الاوروبي مثلا .

انهم استطاعوا أن يجعلوا من هذا العصر ، على ظلمته حلقة نور ، وعرفوا ان يظهروا الركائز الاساسية التي مهدت فيه للعصور الحديثة . وما فعلوه فيما يتصل بالعصر الوسيط فعلوا اكثر منه فى دراسة سائر عصور تاريخهم ، وفى دراسة تاريخ الحضارة عندهم خاصة . لقد فهموا حق الفهم ، لدى دراسة تاريخهم ، ان قيمة التاريخ فى الخط العام الذي يسير عليه وفى الوجهة الاساسية التي يشقها ، وان ما يبحث فيه ما هو الهنات والاخطاء التي تقع فى كل عهد ، وانما هو الروح الاساسية التي تنظم تقدمه وحركته . وفهموا حق الفهم ايضا ان قيمة اي مبدع من المبدعين لا تثوي فى كل ما جاء به ، فما يأتي به اي مفكر ، مهما يكن عالي الكعب ، يشتمل على القمح كما يشتمل على الزوان . ولهذا كانت قيمة الابداع ثاوية فى نقطتين اساسيتين جدد فيهما المبدع وغفرت له سائر خطاياه وتخبطاته .

لقد فهموا تلك الحقائق كلها عندما درسوا تاريخهم ، فعرفوا ان يبنوه بناء علميا يصور حركته الروحية الحقة.

اما عندما انطلقوا شطر دراسة تاريخنا ، فقد نسوا تلك الحقائق جميعها ، وتنكبوا نهجهم فى البحث ، وانقلبوا على فكرهم ومنطقهم . **لقد اخذوا يحاسبون التاريخ العربي على انحرافاته ومنعطفاته ، قبل ان يتحدثوا عن جادته . واخذوا يزنون الابداع بميزان الذهب عندما أتوا على ذكر مبدعي العرب ومفكريهم . لم يذكروا للتاريخ العربي ما اتى به ، ولكن ما لم يأت به . ولم يسجلوا لمبدعي العرب ما أبدعوه ، ولكن ما فاتهم الابداع فيه . واي مبدع ، لعمري أبدع فى كل شيء ؟** ومتى كانت الحقيقة من صنع فرد وحيد ؟ اليس الابداع بناء متكاملا يشيده المبدعون على العصور ؟ اليست الحقيقة بيتا يضع كل باحث فيه حجرا ؟ لقد غفروا مثلا لابي الفلسفة الحديثة « ديكارت » هفاته وما تردى فيه من عود الى الافكار التقليدية المبذولة بعد ان وضع اسس منهج قويم . ولم يغفروا ذلك لمثل الغزالي . وغفروا « لاوغوست كونت » مذهبه المحشو بالاخطاء والاضطراب ، بل غفروا له جنونه أخيرا ، وعدوه مؤسس علم الاجتماع الحديث ، ولم يرق لهم ان ينسبوا الى صاحب علم الاجتماع الحقيقي ، ابن خلدون ، ماوضع من اسس علم العمران .

وقد سرى الينا اسلوبهم فى البحث دون ان ندري . فاذا بنا نشكك فى تاريخنا ، واذا بنا نحمل من امره الريبة والتساؤل ، واذا بنا نزينه بالموازين التي طبقوها عليه وحده ، لا بالموازين التي طبقوها على تاريخهم . وغاب عن ذهننا ان فى كل تاريخ ما هو غث وما هو سمين ، وان قيمته النهائية ، كما قلنا ونقول ، ثاوية فى الاتجاه الروحي العام له . ونسينا ان لدى كل عبقري ضعفا وعوجا ، وان شأنه يقدر بالكشف الاصلي الذي انتهى اليه . وهكذا وقفنا فى النهاية من تاريخنا احد موقفين : الاول موقف نجده عند بعض المتفقهين الباحثين ، قوامه الشك فى قيمة ذلك التاريخ وفيما اكتشف وابدع ، والثاني موقف نجده عند اكثر الناس الذين يعز عليهم ان يصلوا الى هذه النتيجة المشؤومة فيكتفون بتمجيد الماضي والتاريخ تمجيدا لا يؤيده غالبا غير العطف وغير الاعجاب الغامض .

ولكن ، قد يتساءل احدنا بعد هذه الجولة الطويلة ، ما لنا وللتاريخ ، ونحن نتحدث عن المستقبل . ولعلنا ندرك الجواب من روح ما قدمناه بين يدي هذا البحث . **فالمستقبل اولا لا ينفصل عن الحاضر ولا ينفصل عن الماضي . واي بناء للمستقبل لا يمكن ان يكون شيئا ما لم تسجل معالم الماضي ، وما لم تتحقق اللحمة التي تربط وجود الانسان الحاضر باصول هذا الوجود .** على ان الامر عندنا ، في الصلة بين الماضي والمستقبل ، ابعد من هذا. انها صلة تتصل باسلوب البحث الخاطىء الذي اشرنا اليه في البداية والذي اصاب المستقبل كما اصاب الماضي .

ان الافتين اللتين اشرنا اليهما فيما يتصل بدراسة تاريخنا الماضي واقعتان فيما يتصل بدراسة المستقبل عندنا . فنحن هنا ايضا تجاه موقفين خاطئين كالموقفين

السابقين تماما :

الاول ( ولأبدأ بترتيب مقلوب ) اننا كثيرا ما نتحدث عن المستقبل حديثا شبيها بالتغني العائم بالماضي . وهكذا نلجأ الى شلوك من نوع السلوك المتصل بالماضي تماما ، اي الى سلوك تعويضي يكشف عن فقر وعجز . اننا حين نرى ضعف حاضرنا ، نسقط هذا الحاضر في المستقبل هذه المرة ، ونجعل احلامنا مقبلات لا ماضيات . فاذا بنا نضع الاهداف البعيدة ونرسم الصورة المثلى للمدينة الفاضلة او للجمهورية الافلاطونية ، مكتفين بذلك كله عن الصراع والنضال الحاضر الحي . ان عملنا ههنا عمل من يريد ان يقنع نفسه وغيره انه ادى رسالته ورفع المسؤولية عن عاتقه حين بيّن لقومه ما ينبغي ان يكونوا عليه وحين رسم لهم الاهداف البعيدة . انه ذكرهم انهم ينبغي ان يؤلفوا مجتمعا عربيا موحدا ، وان يتخلقوا فيه بالاخلاق ويتمسكوا بالقيم ، ويأخذوا بالعدالة الاجتماعية ويرسموا طرق الحرية . لقد بلّغ وانذر ، وقد اعذر من انذر .

ونحن لا ننكر عليه ما لتوضيح الافكار والخطط من فائدة ، ولا نجهل اثر الوضوح العقلي في سير اي اصلاح ، ونعرف ما للغاية والنهاية من شأن في توجيه السلوك . ولكن على ان تكون تلك الغاية المرسومة مصحوبة فعلا ببيان الخطوات الواضحة الواقعية المؤدية الى بلوغها . وبتعبير اخر ، هنالك غايات بعيدة وغايات قريبة . اما الغايات البعيدة فما ابرعنا في رسم خطتها ، وما اكثر كلامنا عنها وتغنينا بها . اننا نضعها في الافق البعيد ، لنمجد بعد ذلك آلاءها ونستمتع بسحرها ونكتفي برؤى عالمها المسحور . وما اظننا على خلاف حولها . غير ان الى جانبها غايات قريبة هي الوسائل التي ينبغي ان نتوسل بها لبلوغها ، هي الحلقات الضرورية التي ينبغي ان نمر بها قبل بلوغ الحلقة النهائية . واذا لم توضح تلك الغايات القريبة ، تلك الوسائل والادوات ، كان الحديث عن المستقبل ، كالحديث عن الماضي العائم ، حديثا لا يعدو التغني بفردوس ننتظر ان يمنح لنا لا ان نقتحمه . ان المستقبل كما قلنا ونقول ، ينبغي ان يكون متصلا بالحاضر ، اي ينبغي ان يكون قوة محركة للحاضر بل ينبغي ان يكون الحاضر دوما جريا نحوه . ان اللحظة المقبلة لحظة حاضرة بعد حين ، واذا لم نحاول تغييرها قبل ان تقبل اقبلت بسحنتها القديمة ، وكان المستقبل اشبه بالماضي من الماء بالماء كما يقول ابن خلدون . وهكذا ينبغي ان يبدأ العمل للمستقبل منذ اللحظة الحاضرة ، لا ان نترك العمل للمستقبل لمستقبل موهوم نلقي عليه المهمات والتبعات . وقد يبدو ما اقوله ضربا من الحكم البدهي وتحصيل الحاصل ، ولكنه ، على كونه تحصيل حاصل عندما نطرحه فكريا ، لا نرتب عليه اي نتيجة عملية غالبا . ان الحلم بالثورة ليس هو اسلوب تحقيق الثورة .

هذا هو الموقف الاول الذي نقفه من المستقبل غالبا ، والذي يشبه موقف التغني بماض غائم غير مستبين المعالم . وهو موقف متفائل دون شك ، غير انه عقيم ، فيه راحة كسولة ، وفيه طمأنينة مخدوعة .

اما الموقف الثاني فموقف متشائم على العكس . انه يبحث عن المستقبل من خلال آفات الحاضر ، وينظر الى هذا الحاضر نظرة اولئك الغربيين الذين يدرسون التاريخ العربي . انه موقف اكثر دقة وموضوعية في ظاهره من الموقف الاول ، اذ لا يكتفي برسم الغايات القصوى والاهداف البعيدة ، وانما يحاول ان يتحدث عن العلل الحاضرة والمفاسد القائمة التي تحول دون تحقق تلك الاهداف . ولكنه في باطنه مجانب للدقة ومجانب للموضوعية .

ان اصحابه يخيفهم الفساد القائم ، فيحسبونه اصيلا ، ونقرأ من خلال اقوالهم شكا في امكان زواله ، بل النتيجة العميقة لاقوالهم ان نيأس ونعتقد كل تغيير مستحيلا . انهم في زعمهم يبدأون من اسلوب علمي صحيح ، وهو ان معرفة ما هو قائم نقطة الانطلاق لمعرفة ما ينبغي ان يكون ، وان لا سبيل الى تغيير الواقع قبل فهمه ووعيه . وهذا قول صحيح لا غبار عليه . ولكن شريطة ان نفهم الواقع حق فهمه والا نحسب الزائف فيه اصيلا والاصيل زائفا ، والا نحمله ما ليس من طبائعه .

ان هذا الفريق ، الفريق المذعور من الفساد ، الذي يصدر ذعره هذا غالبا عن عاطفة صادقة ، يعدد آفات البلاد العربية الحالية ، فيحسبها اصيلة ، بل كثيرا ما يصل الى حد اعتبارها مقومة للنفس العربية :

يحدثنا المفكر العربي الكبير الاستاذ ساطع الحصري في كتابه « دفاع عن العروبة » عن جانب من آراء هذا الفريق ، فيسرد علينا اقوالا للدكتور حسين مؤنس حول مستقبل العرب ، خلاصتها الزعم ان من مقومات النفس العربية انها محرومة من الاحساس بالمستقبل وانها لا تفكر الا في يومها ، وقلما تفكر في غدها او تحسب حسابا له . حتى انه يدلل على هذه الاقوال بادلة عجيبة منها « ان المستقبل في لغة العرب مضارع تضاف اليه السين او سوف ، وهما في احساس الشرقي يوحيان الى النفس معنى التشكك وعدم اليقين » .

ونقرأ لكثير من المفكرين العرب اوصافا للعربي ، وللعربي الحاضر خاصة ، لا تعدو هذه التهم البعيدة عن الواقع ، ولا تجاوز ان تكون اوصافا من نسج خيال اصحابها او من مقتضيات اسلوبهم في البحث . فنقرأ لاحدهم اننا لا نجد لدى العرب « شعورا او ايمانا صحيحا بالحاجة الى النهوض » او انهم « يتصفون بعناصر خلقية لازمتهم خلال كافة مراحل تاريخهم ، بما فيها ادوار المجد والانحطاط » ويقصد بهذه العناصر الخلقية اتصافهم بالانفعال وبفورة العواطف ، ثم « النزوع الغيبي » او العقلية السحرية اذا اردنا ان نتبنى اصطلاح « اشبنجلر » .

ويرتب مثل هذا الكاتب على هذه الصفات نتائج منها ان « الروح العربية اليوم عزلاء من المثالية وعزلاء من اي ايمان برسالتها ومن اية رسالة لها في الحياة » ، ومنها « عبودية » الروح العربية ، بل يزيد في ذلك فيتهم العرب وحدهم دون غيرهم بان مفهوم الاخلاق عندهم « مفهوم زجري صرف » ، وان تحسسهم بالجمال « تحسس مريض » : فالموسيقى طرب والرقص اثارة للشهوة . اما البطولة فلا وجود لها ، واما الحرية فمثل اعلى « وافد الى الشرق كما تفد اليه سائر مقومات الحضارة الحديثة وعلى نسق البدع والزخارف تماما » ، واما حرية الفكر « فشق النفس ايسر من العثور على اثر من آثارها » . وجملة القول ان العقلية العربية في نظر مثل هذا الباحث ( ونحن نورد اقواله دقيقة ) تتميز بسمات رئيسية ثلاث : ضعف حس الواقع ، والكفر بمبدأ التطور ، وسيطرة الاوهام والخرافات .

هذه نماذج قليلة من ذلك الاسلوب الذي نجده شائعا لدى بعض الكتاب ، ظنا منهم انه اسلوب علمي واقعي يصف الداء اولا ليصف الدواء بعد ذلك . وكثيرا ما يقابل وصفهم هذا لحال العرب في زعمهم وصف مضاد لحال الغرب . فاذا الاخلاق هناك ، واذا التفكير في الغد سمة تلك الشعوب الغربية ، واذا الحرية واحترام الفرد وكرامته ، والايمان بالقيم ، من مقومات حياة تلك الشعوب وحدها .

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن العرب ، ولسنا ممن ينزعون الى الامتداح الخالص لصفاتهم وطبائعهم . ولكننا لا نستطيع الا ان نرى الخطل في هذا الاسلوب من البحث الذي يلجأ اليه بعض كتاب العرب اليوم ، ظنا منهم انهم يحسنون صنعا

**واول شيء نود ان نذكر به هنا ، ان هذه الافات التي يذكرها مثل هؤلاء الكتاب – ان صح انها قائمة كلها – نتيجة لتأخر المجتمع العربي لا سبب له . وشتان بين الامرين** . ان العوامل التي ادت الى تأخر المجتمع العربي ثاوية في غير هذه الصفات التي يود هؤلاء الكتاب ان يغدقوها على العربي الحاضر . ان هنالك عوامل كثيرة ، على رأسها دخول الاعاجم قديما والاستعمار حديثا ، هي التي ادت الى تقهقر الكيان العربي ، وهي التي ادت الى استشراء بعض الافات وظهور بعض العلل . ان الاوبئة والجراثيم سريعة الظهور في الماء الراكد الاسن وفي البيئة الضعيفة . وعندما يهزل الجسم تتكاثر عليه الآفات تكاثر الظباء على خراش ، بل تعشعش فيه وتفرخ وتتوالد . وكما ان هذه الاوبئة سريعة التكاثر والتوالد في البنية ما دامت ضعيفة فهي سريعة الزوال دفعة واحدة غالبا عندما يستقيم كيان البنية . ان البنية تهزل في سائر جنباتها ، ولكنها تستعيد الصحة في سائر جنباتها . ولهذا كان من الواجب الا تخيفنا مثل هذه الاوبئة

– التتمة على الصفحة ٩١ –


# الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ – تلفون ٣٢٨٣٢

★

**الادارة**

شارع سوريا – رأس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

★

**الاشتراكات**

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

**تدفع قيمة الاشتراك مقدما حوالة مصرفية او بريدية**

★

**الاعلانات**

يتفق بشأنها مع الادارة

★

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣

# الجيل العربي الجديد امام مستقبله

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

- تتمة المنشور على الصفحة ٩ -

الاجتماعية التي نجدها في بيئتنا والا نتتقل منها الى التشاؤم واليأس . انها نتيجة طبيعية لركود حياتنا . ولكنها تزول بيسر كبير وتذوب حين تدب الحرارة في الكيان العربي ويمتلك قدره . واذا ما بقيت فسيكون فعلها-فعل الجراثيم المفيدة التي تعمل كالمحرض والمنشط للكيان السليم .

**وهل بعد ما شهدناه في الاونة الاخيرة من انتفاضة الشعب العربي في كل مكان ، من شك في ان الآفات التي نعانيها ليست سوى تشكلات سطحية زائفة تتحطم وتتشقق عندما تعمل البراثين الحية عملها ؟ هل بعد بطولات بور سعيد وغير بور سعيد من شك في سطحية الآفات التي تخيف بعض النفوس ؟** ان صفات البطولة والخلق وغيرها لا تبنى ذرة ذرة ولا تصف صفا او ترصف رصفا ، انها تنبثق من الكيان كلها دفعة واحدة حين يستيقظ . ومثلها الآفات والنقائص . فهي لا تحارب جزءا جزءا وركنا ركنا ، وانما تزول دفعة واحدة امام الحياة المستيقظة ، امام القوة العارمة ، قوة الحضارة حين تنبعث .

ان الابطال في التاريخ لم يغيروا وجهة التاريخ ووجه شعوبهم ، عن طريق تعداد الآفات ودك حصونها واحدا بعد واحد ، وانما وجدوا(ووجودهم وحده كاف)ووجدت دفعتهم الروحية واستقطبوا عناصر الخير ، ففاضت عناصر الشر وتوارت من تلقاء ذاتها . ان لدى اي انسان، عربيا كان او غير عربي ، عناصر خير الى جانب عناصر الشر، واخلاقا متداعية الى جانب الاخلاق القويمة ، والذي يساعد على ابراز عناصر الخير واخفاء عناصر الشر هو الجو الروحي العام ، هو اتصاف الشعب بالحركة او بالجمود . ان الفراغ اساس الرذائل ، سواء لدى الافراد او لدى الجماعات . وعندما يجد الشعب نفسه امام فراغ في حياته القومية تنهض فيه الآفات وتبزغ الشرور ، ولا يعلم تكاثرها الا الله . اما عندما تتحرك حياته القومية ، عندما يسير ويهدر ( ولحركته عوامل كثيرة لا سبيل الى ذكرها ) فانه لا بد جارف في تياره ما تكدس من الاكدار وما غشيه من الادران .

وان نعجب فعجبنا من هؤلاء الكتاب كيف اعمتهم الآفات مجتمعهم وهالهم امرها ، وكان حريا بهم ان يعجبوا من كل شيء الا منها . أيعجبون من سقم مجتمع قاسى ما قاسى خلال عصور طويلة من الاستثمار والاستعمار ؟

تعجبين من سقمي صحتي هي العجب

لا ! انهم بخصائل هذا المجتمع اولى بالاعجاب . ان دهشتهم قمينة بأن تنصب على هذه الحقيقة الصارخة التي نجدها في المجتمع العربي وهي ان هذا المجتمع ، رغم ما قاسى وعانى ، ورغم آفاته الدخيلة المتراكمة على مر العصور ، ما يزال ينبت بين الفينة والفينة ارواح الخلق والحضارة ، وما نزال نجد فيه ، بين الفساد الساري ، بسمات عزيزات للاريحية والتضحية والشهامة والبطولة.

**وهل بعد حديث الجزائر العربية حديث أفصح ؟ هل بعد البطولة الخارقة لقدرة البشر ، التي اطلت بعد احتلال عنيد طويل وبعد شتى ضروب الافساد والاذلال القومي ، من مثل يقدم عن البطولة ؟ الا خرست بطولة اي شعب ، اذا ما نطقت بطولة الجزائر . ان ايماننا بالعربي ، مهما تبدد الشكوك الخاطئة ، واجد في عرب الجزائر خير شاهد على اصالة العربي .** بل نذهب ابعد من هذا .هلا يجد الباحثون في السلوك اليومي للمواطن العربي العادي ما يجدد ايمانهم بخلق العربي واطلال ذلك الخلق ، رغم الفساد ؟ ان في تضحية الجار في سبيل جاره ، وفي ايثار المرء لغيره على نفسه في كثير من المواقف ، وفي تراكض الناس لنصرة الملهوف ، وفي احتضانهم للكرم واستمساكهم به ، وفي تناسيهم سائر انانياتهم عندما يجد الجد فيصاب صديق او يهدد انسان أو يذل بلد ، لافصح دليل على عمق العنصر الانساني لدى العربي . وظننا ان هذه الاشياء الصغيرة ، التي يدعونها صغيرة ، هذه الاشياء اليومية العارضة ، هي التي ينبغي ان تتقرى في البحث عن روح شعب ، قبل كبائر الفساد وعظائم الآفات . فالفساد دخيل ، والافات نتيجة طبيعية لتاريخ المريض ، اما ومضات السلوك المحملة بالخلق والاريحية ، فهي الومضات الخارجة من الاعماق ، المعبرة عن الطبع اللاشعوري المغمور في الكيان العضوي .

ولا أدل على كل ما نقول من ان الآفات والصفات التي ينسبها بعض الكتاب الى العرب، زاعمين انها سبب تأخرهم، وان القضاء عليها نقطة البدء ووسيلة التقدم ، آفات وصفات نلقى امثالها في كل مجتمع . انها آفات وجدت اولا في سائر المجتمعات في اطوار انحطاطها . وهذا امر طبيعي لان الانحطاط يدعو الى تكاثر الاوبئة كما قلنا . وهي بعد ذلك افات قائمة في المجتمعات المتطورة اليوم ، غير انها فيها قد ابتلعت وذابت ضمن الكيان العام السليم . ولو قدر لأحدنا ان يجمع الآفات الموجودة في

مجتمع اوروبي متحضر في يومنا هذا لدهش كيف يمكن ان تؤدي هذه الآفات الى خلق حضارة كحضارة ذلك المجتمع . ذلك ان الحساب دوما في تاريخ الحضارات للايجاب لا للسلب ، للصفات الخيرة لا للصفات الشريرة .

ليس كيان الامة مجموع الصفات التي نجدها لدى افرادها . وانما هو الصفات المقومة الموجهة ، التي تملك القدرة على التحريك والدفع ، والتي تصبح الصفات الاخرى بالنسبة اليها هوامش وذيولا لا شأن لها . ان الامة ليست جمعا عدديا للصفات ، انها شيء يتجاوز الصفات الفردية ، انها روح عامة من خلالها تكتسب الاشياء الواحدة معاني مختلفة . فالانانية تصبح هنا بمعنى غير معناها هناك ، و « الروح السحرية » تكتسب من روح عامة مبدعة ، قوة وغنى غير ما تكتسبه من روح هزيلة مريضة ، و « الانفعال » يلبس ضمن الجو السليم لبوس العطاء والفيض والحركة البناءة ، ويلبس ضمن الجو الآسن لبوس الفورات المخربة . ان اعدى اعداء الحقيقة والبحث العلمي في الواقع تلك النظرات الملة المجزئة التي تحسب الامور جمعا عدديا للخصائص والصفات . ان فوق تحليل كل محلل واقعا عاما ، به يفسد كل تحليل . ألم تكن كلمة الكثيرين من ابناء العرب بعد معركة مصر ان الشعب قد فاجأ نفسه في هذه المعركة ؟ الم يدهش المشاهدون كيف انقلبت صفات حسبوها كسولة خائرة الى نضال عنيد وفضائل عميقة ، يوم وجد الجو العام الذي يصهرها ؟

وبعد ان النتيجة التي نخلص اليها من هذا كله هي **ان البحث في المستقبل العربي لا يجوز ان يقف عند البحث عن الغايات العامة والاهداف البعيدة ، بل ينبغي ان يجاوز ذلك الى البحث في الاهداف القريبة ، في الوسائل التي ينبغي ان نتوسل بها لبلوغ الهدف الاقصى .** او بتعبير آخر ، لا بد من جعل المستقبل مباشرة فى قلب الحاضر ، اي لا بد من البدء بالعمل للمستقبل لا برسم الخطط له فحسب . وهذا الاحلال للمستقبل في قلب الحاضر لا يعني عندنا ان نشرح الحاضر تشريحا زائفا يكشف عن خصائص مزعومة له ، نخالها علة العلل ونصب هجومنا عليها . انه يعني ، بقول واحد ، ان نضع منهج العمل المباشر المؤدي الى خلق الروح الحضارية الكفيلة بالقضاء على العلل .

ان العمل عندنا هو سبيل بناء المستقبل ، وهو الحري بازالة الرواسب الفاسدة العالقة بجسد الامة العربية .

والبناء ، هو الوسيلة الخصيبة التي تعرك النفوس وتجند الاعصاب والهياكل . ان البدء بمشروع بنائي مهما يكن صغيرا قد غدا في مرحلتنا الحاضرة فيما نعتقد ، خيرا من الف خطة توضع للمستقبل البعيد . لقد قال « بيكون » قديما :

« ان تجربة واحدة من تجارب الطبيعة تعدل عندي الف دليل عقلي » . وفي وسعنا ان نقول اليوم : ان الشروع بعمل واحد من الاعمال البناءة يفضل الف بناء عقلي .

ان الامة العربية اليوم ، قد وعت حق الوعي قضيتها ، وادركت هدفها النهائي : فليس بينها من يشك في الوحدة العربية أو فى العدالة الاجتماعية أو فى الحرية . واذا وجد من يشك فيها فنفر قليل لا يؤبه له ، سيحمله الركب معه يوم ينطلق ويسير . غير ان من الخطأ ان نعتقد ان هذه الاهداف لا يمكن ان تبلغ بمجرد الايمان بها ووعيها . ان الايمان بها قوة هائلة دون شك . ولكن قد لا يقوى هذا الايمان دوما على مغالبة عوامل الزمن ، وقد لا يكون السير الطبيعي للزمن سيرا محققا لهذه الاهداف على نمو عفوي لا عناء فيه ولا جهد . ان الشيء المحقق ان هذه الاهداف ، رغم اقرار الجميع بها ما تزال غير محققة ، وما يزال بينها وبين تحقيقها اشواط . بل ان الامر الواقع ان هذه الاهداف ، وان آمن بها الكثيرون بأفواههم وقلوبهم ، فهنالك من يعمل لمحاربتها مدفوعا باغراض معينة ، وهنالك من يستسلم الى سحرها ويركن الى بردها ، فلا يعمل لها البتة . ومعنى هذا ان الايمان بهذه الاهداف ينبغي الا ينفصل عن النضال اليومي في سبيلها .

ومن الخديعة ان يخيل الينا مثلا ان هدفا كالوحدة العربية هدف طبيعي لا بد بالغوه ، وان المسألة مسألة زمن فحسب . ان هذا الهدف في نظرنا ، رغم كونه صادرا من اعماق مشاعر العرب وحاجاتهم ، قد نبتعد عنه بدلا من ان نقترب ، اذا لم نجند القوى للنضال في سبيله يوميا . ومثله العدالة الاجتماعية . فالعدالة الاجتماعية تصطدم برواسب كثيرة ، ومجرد اقرارها لا يوصل اليها . انها في حاجة الى عمل يومي ، سياسي وفكري ، يضع اسسها شيئا بعد شيء ويوصل اليها قبل ان تسوء الاحوال وتستشري فلا يبقى مجال غير الثورة .. والحرية ، نعني التحرر من الاستعمار اولا والحرية الاجتماعية ثانيا ، لا تنطلق عفو الخاطر ، انها لا تكون الا بالنضال الصعب الشائك ، بالاستشهاد في سبيلها .

ان من البراهين على فساد العمل لهذه الاهداف ان يكون السعي لها سهوا رهوا . وان من براهين صحة العمل لها ان يكون دوما معروضا للخطر ، مليئا بالشوك . فمن طبيعتها النضال ، ومن سمات العمل لها المشقة والخطر . وقديما قال « نيتشه » : « اذا اردت ان تجني من الوجود خير ما فيه عش في خطر » ... وحديثا جعل « هيدغر Heidegger » القلق المنتج ابرز دليل على الحياة وعلى الوجود ، وجعل الشعور بالوجود ملاصقا للعمل الحر ، للعمل الملتزم .

ومعنى هذا انه لا بد ان يقوم في البلاد نضال موحد منظم في سبيل هذه الاهداف . وهذا النضال لا بد ان تكون له خطته . وهذه الخطة هي التي نريدها خطة ترسم

الاهداف القريبة العاجلة ، لا الاهداف البعيدة . هذه خطة ينبغي ان تشتمل على الخطوات العملية المتتالية ـ بدءا من الخطوة الاولى ، من الحركة الاولى ـ المؤدية إلى الاهداف المنشودة . بل ينبغي ان تكون في بدايتها نقطة انطلاقها وانقلابها الى عمل منجز .

ومعنى هذا ان هذه الخطط العملية التي ينبغي ان توضع، ينبغي ان تشتمل على مشروعات جزئية تفصيلية . فهاهنا حديث عن مشروع زراعي منتج . وهناك تنظيم لعمل تعاوني . ووراءهما انشاء لمنهاج تربوي ، الى آخر ما هنالك من الاعمال الدقيقة المعينة .

وليس من شأننا ان نتحدث عما يمكن ان يتم فى سائر مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية من مشروعات تفصيلية تنفض كياننا شيئا بعد شيء وتمسح عنه غبار التأخر . ونحن نترك البحث فى هذه المجالات لاصحاب الاختصاص العلمي الدقيق . غير ان هنالك مجالا لا بد ان نتصدى له ، قد يكون اكثر المجالات قيمة وشأنا ، نعني به مجال التربية والتعليم . واوضح ان البدء بهذا المجال ، ان لم يكن كافيا وحده ، فهو خيرمهاد عميق للعمل فى أي مجال آخر .

فما هي الخطوات العملية التي نستطيع ان نخطوها فى سبيل تحقيق منهاج قريب منتج فى هذا الميدان ، ميدان التربية والتعليم ؟ غني عن البيان ان نقول ان هذه الخطوات ينبغي ان تكون مستلهمة اولا من الاهداف النهائية التي نسير نحوها ، ومستوحاة ثانيا من حاجات المجتمع العربي السريعة .

لهذا ، لن نتحدث هنا عن طرائق كثيرة التربية والتعليم، طالما تحدث عنها المربون فى العالم ، ونقتصر على الطرائق التي تكون حقا الخميرة المنشطة للكيان العربي .

واول ما يتبادر الى الذهن بهذا الصدد **ان نجعل مناهج التعليم مرتبطة بالحياة العربية ارتباطا وثيقا :**

لقد كانت المناهج عندنا، وما تزال الى حد بعيد حتى اليوم، منفصلة عن الحياة من حولها . كانت تستقى من ضرورات غير ضرورات المجتمع القائم . كانت تستقى من العلم الابدي المطلق . فهنالك علم ، وهنالك معارف ، ينبغي أن تقتنى ، بصرف النظر عن حاجات المجتمع وعن المرحلة الزمنية التي يمر بها . لقد كانت للعلم قيمة مطلقة في ذاته، وكان المنهاج بالتالي يغرف منه اكبر قدر ممكن وينصب نفسه ايضا غاية لا وسيلة . وكان لا بد بالتالي من ان ينظر الى الامور على النحو التالي : ما دام الفراق قائما بين المنهاج والحياة ، فليحبس الطالب اذن سنوات معينة، وليعزل عن الحياة ، ليدخلها بعد ذلك ، لدى مفارقته المدرسة ، مزودا باسلحة لمواجهتها . وهكذا كان اصحاب هذه المناهج القديمة يخالون ان بامكاننا ان نصل الى الحياة على انقاض الحياة ، وان نعد للحياة انسانا عزل عنها سنوات وسنوات .

ومن هنا نادى المحدثون فى سائر البلاد بضرورة جعل المدرسة منذ البداية جزءا من الحياة ، نادوا بأن تكون صورة مصغرة للمجتمع بما فيه من الوان النشاط . وارادوا أن تكون المناهج وسيلة لا غاية . فالعلم غزير كثير ، لاسيما فى عصرنا ، ومن المستحيل ان ننقله للطلاب كاملا ، ولا بد من التخير . والتخير ينبغي ان يتم على اساس اصطفاء المعارف ذات الصلة الوثيقة بحياة الطلاب الاجتماعية .

ان المدرسة ، فى عرف هؤلاء المحدثين ، لا تخرج انسانا عرف كل شيء عن العلم ، وانما تكون انسانا ملك ادوات العلم واسلحته وملك الدفعة اللازمة لمتابعته فيما بعد. وهي فوق هذا تخرج الانسان الذي عاش حياة مجتمعه وهو فى المدرسة وتدرب على ضروب النشاط السائدة فى هذا المجتمع منذ الحياة المدرسية . ولا يكون ذلك الا اذا كانت المدرسة هي الحياة عينها ، كما يقول مرب كبير كديوي .

ولا يؤدي هذا الانقلاب فى بنيان مناهج الدراسة الى تخريج المواطن الصالح للحياة الاجتماعية القادر على متابعة زاده الثقافي فحسب ، وانما يؤدي عندنا الى شيء أهم وأقوم، ذي صلة بصميم الحياة القومية. انه يؤدي الى جعل الفرد مرتبطا ارتباطا وثيقا بحياة زمرته الاجتماعية ،وبالتالي الى خلق الكائن الاجتماعي المدرك لحياة امته . فلا سبيل الى خلق المواطن الاجتماعي المندمج فى حياة قومه الا عن طريق تدريبه منذ الصغر على ضروب النشاط السائدة فى مجتمعه وعلى العادات والاعمال الذائعة فيه . لا سبيل الا ان نغمر الكائن منذ الصغر فى ماء مجتمعه . مما لا يتوافر الا اذا جعلنا المدرسة هي المجتمع .

لهذا كانت المناهج الحديثة تقيم وزنا كبيرا للنشاط العملي والاجتماعي فى قلب المدرسة ، وتجعل العمل اليدوي وسيلة كبرى للدخول فى روح المجتمع وادراك عبقريته ومعرفة حياة الطبقة العاملة ، التي تكون الجزء الاكبر منه . ولهذا كانت تجعل مواد الدروس ، ولاسيما فى المرحلة الابتدائية وفى جانب كبير من المرحلة الثانوية ، تدور حول مشروعات حية ، وتؤلف ما يدعى بالمنهج المشترك . وهكذا لا تدرس الفيزياء عندئذ على انها فيزياء والكيمياء على انها كيمياء ، والتاريخ الطبيعي على انه تاريخ طبيعي وانما تدرس هذه المواد جميعها كوسائل الحديث عن الماء مثلا سواء فيما يتصل بخواصه الكيميائية او صفاته الفيزيائية او ثروته من الاسماك او ريه للاراضي او غير تلك من المعارف التي تدور فى فلكه . هذا هدف اول من اهداف التعليم التي ينبغي ان تكون وسيلة نتوسل بها لاصلاح كياننا .

ويرتبط بهذا الهدف هدف ثان لا يقل عنه شأنا هو **العناية بالتعليم المهني على اختلاف ضروبه واشكاله :**

ولا نقصد بهذه العناية ان نقتصر على اغناء المدارس المهنية من صناعية وتجارية وزراعية ونسوية ، وانما نقصد بها شيئا يتجاوز هذا . نقصد بث العمل المهني فى سائر مراحل الدراسة وانواعها ، سواء كانت دراسة مهنية خالصة او دراسة تدعى نظرية اكاديمية . فمما لا يحتاج الى برهان

ان القوى الخلاقة التي ينتظر منها انعاش حياتنا القومية هي العقول التي عرفت ان تربط بين اليد والفكر ، وان تحقق الوظيفة الاولى للفكر ، نعني العمل والصناعة . الم يعرف بعضهم الذكاء بانه اداة التأثير في الاشياء ؟ ومثل هذا الربط بيناليد الصناع والعقلالصناع ينبغي انيتم منذ طور مبكر ، وان يستمر في سائر اطوار الدراسة . فعن طريق الادخال المبكر للنشاط اليدوي في المدارس يستطيع الفرد اولا ان يتعرف على حقيقة قابلياته وان يكتشف مواهبه . وعند ذلك ينطلق شطر هذه المواهب عندما يرى ما تنتجه من ابداع لديه ، غير آبه بتلك الاعتبارات القديمة البالية التي تجعل العمل المهني دون العمل الفكري، والتي تحقر المهنة والعمل . انه اذ يكتشف قدرته على الابتكار في مجال المهنة يدع رواسب العهود الماضية ، رواسب بلد كأثينا كان يدع العمل اليدوي للعبيد والعمل الفكري الفلسفي للاحرار، او رواسبمجتمع كالمجتمع العربيالقديم، كان يحقر أهل الحضر ويقدم عليهم أهل البادية ، ويعير فرزدقه جريره بأنه «القين وابن القين» ويذكره بأصله قائلا:

اني بنى لي في المكارم اولي ونفخت كيرك في الزمان الاول

وهذا الربط بين اليد والفكر منذ طور مبكر يؤدي ثانيا الى اعتياد العمل المنجز ، العمل المتقن . ونحن احوج ما نكون الىان نعتاد القيام بمشروعاتعملية نعرف اننتجزها. نحن أحوج ما نكون الى ان نذكر الحديث الشريف القائل : « ان الله يحب احدكم اذا عمل عملا ان يتقنه » . وهذه المحبة للعمل المنجز ، للعمل الكامل الصنع ، حس عملي بل وبديعي ، يتكون عن طريق المران والدربة منذ الصغر .

من اجل هذا كله وجدنا المناهج الحديثة تعنى بتصنيع المدرسة ، ان صح التعبير . فالصناعة اولى مظاهر النشاط الحديث ، وابرز امارات الثورة الكبرى التي تمت في العصر الحديث ، وهي العصب الاساسي الذي يستطيع ان يقدم الغذاء لحياتنا العربية خاصة ، في مجال الاقتصاد والثروة القومية وفي مجال الاخلاق والقيم الروحية والفكرية ، وادخال الصناعة في المدارس ، وفي المدارس النظرية نفسها، خطوة ضرورية في سبيل خلق هذا الشريان المغذي لحياتنا .

ذلكم اذن هدف ثان اساسي .

ويرتبط به ، بل وينشأ عنه ، هدف ثالث مقدم على غيره ، **هو تنمية الشعور الاجتماعي عن طريق المدرسة .** ان كلامنا يدرك ان احوج ما نحتاج اليه في حياتنا العربية الناشئة اعتياد العمل الجمعي المشترك ، والتحرش بأصول التعاون . وأشد ما نشكو منه سيطرة الروح الفردية ، وعدم امتلاك اساليب العمل الجمعي والسعي الجمعي . ومثل هذه الآفة آفة طبيعية ايضا في مجتمع متأخر . غير انها ليست بالآفة الاصيلة ، ولا يحملنا استشراؤها على ان نقول مع اولئك الكتاب الذين تحدثنا عنهم منذ حين انها آفة مقومة للخلق العربي . اننا من المؤمنين بأثر البيئة ، ومن المؤمنين خاصة بأثر التربية . وظروف البيئة التي عاش فيها المجتمع العربي خلال عهود الانحطاط هي التي خلقت روحه الفردية ، والتربية هي الكفيلة بالقضاء على هذه الروح . ان هذه الروح الفردية وجدت في كل مجتمع في ايام ضعفه ، ونعود فنقول انها ايضا موجودة في المجتمعات المتقدمة اليوم غير انها مصهورة ضمن النظام الاجتماعي العام الذي يحبسها في أقنية متينة تصب اخيرا في المستودع القومي الشامل . وامتلاك الروح الجمعية المنظمة لدى سائر الدول الحديثة نتيجة نضال طويل في سبيلها وتربية عميقة لها . والمدرسة ، الى جانب النقابات ، هي المسؤولة الاولى عن ذلك . ففي المدرسة ينبغي ان يتكون الحس الاجتماعي . وهو يتكون فيها بطرائق عديدة اكثر من ان تحصى . انه يتكون عن طريق تدريس المواد نفسها : حين يتخذ هذا التدريس مناسبة لاظهار ما يخلقه التضامن بين الناس من تقدم في العلم والحضارة . فالعام كما نعلم شاهد بارز على النضال المشترك . ويتكون هذا الحس الاجتماعي بعد ذلك عن طريق شكل النظام والطاعة السائد في المدرسة . فالابتعاد عن العقوبات الفردية ، والسير نحو العقوبات الجمعية ، وجعل الطلاب يحكمون انفسهم بأنفسهم عن طريق ما يدعى بالحكم الذاتي Self government او Auto diseipline وتنظيم حياتهم على شكل أسر متآزرة ، بل اقامتها على شكل جمهورية ديمقراطية منظمة، وابعاد المكافآت التي تنمي الانانية وتزيد من التنافس الشائن ، كل هذه وسائل لتنمية الحس الاجتماعي . ولا حاجة الى القول هنا ان معظم ما في الاسلوب التقليدي المتبع عندنا في شؤون النظام المدرسي مجهول بحيث يؤدي الى اذكاء الانانية : فأنا الذي اتقدم ، وذكائي وذاكرتي ومعرفتي وقدراتي العقلية وسائر محاسني الفردية هي التي تدخل في الحساب على حد تعبير المربي الالماني كرشنشتانير Kerschensteiner وانا الذي اتلقى علامات جيدة وانا الذي أكافأ وانا الذي انجح في الفحوص . ان الانا البغيض ، على حد تعبير « مونتيني Montaigne » هو الذي يبرز ويظهر . اما « النحن Le nous » ان صح ان تستخدم بعض رطانات الفلاسفة المحدثين فلا ذكر له .

على ان تكوين الحس الاجتماعي لا يتم عن طريق مواد التدريس واسلوب النظام فقط ، انه يتم بوسائل ايجابية اخرى اكثر نجعا لا مجال لتعدادها . نذكر منها اسلوب العمل في فرائق ، وتوزيع مشروعات الدراسة على الطلاب زمرا وكتلا لا افرادا . ونذكر منها انشاء بعض التعاونيات التي يكون افرادها الطلاب انفسهم ، سواء كانت تعاونيات


# مفاخرة الجواري والغلمان

لابي عثمان الجاحظ

**تحقيق المستشرق الاستاذ شارل بلا**

**تنشره دار المكشوف للمرة الاولى**

انتاج او تعاونيات استهلاك . ونذكر منها قيام الطـلاب بتعهد مجلة مدرسية او مطبعة مدرسية ، يتآزرون فيهـا ويشتركون . واخيرا نذكر على رأسها ذلك النشـاط الاجتماعي بشتى الوانه ، وفي قمته النشاط العملي المهني. فهذا النشاط خير وسيلة لبث الروح الاجتماعية ، لانه كما قلنا الوسيلة الاولى لربط الانسان بحياة الجماعة ولاطلاعه على اسلوب العمل الجمعي والبناء المشترك .

وجملة القول **ينبغي ان تكون المدرسة الآلة الحقيقية لتخريج المواطن العربي** . ولا شك ان هذه الاهداف التي ذكرناها وسائل فعالة مباشرة ، بل الوسائل الوحيدة ، لتخريج هذا المواطن . ولا حاجة الى ان نضيف اليها هدفا بدهيا ، وهو ان تكون هذه التربية التي تقدم في المدارس واحدة في البلدان العربية . وقد ادركت الدول العربية هذه الحقيقة منذ امد وسعت لها عن طريق المؤتمرات الثقافية المختلفة ، كالمؤتمر الثقافي العربي الاول المنعقد في بيت مري عام ١٩٤٧ والمؤتمر الثقافي العربي الثاني المنعقد في مدينة الاسكندرية عام ١٩٥٠ ، وتوجت سعيها اخيرا بالمؤتمر الثلاثي الاخير الذي انعقد في القاهرة في السادس عشر من شباط الماضي والذي وضع اسسا عملية لانفاذ سائر ما قرر في المؤتمرات السابقة من مباديء ، وتجاوز التوصيات الى الخطط العملية المدروسة . وقد فتح باب دخول هذا الاتفاق الثقافي الاخير لجميع الدول العربية الراغبة في ذلك، كما تعلمون .

هذا مثال واحد عن الخطط العملية التفصيلية التي ينبغي ان توضع في سائر مجالات الحياة العربية . وهـذا هو ما نعنيه عندما ندعو الى العزوف عن التمطق بالاهداف البعيدة ، دون ان يكون ذلك مشفوعا برسم واضح بين للاهداف القريبة المباشرة المؤدية اليها . وهذا هو ما نعنيه عندما نعتبر الحديث عن المستقبل حديثا عاما ضربا من التغني بآت خيالي، قوي النسب بالماضي الغائم .

✶

في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة التي تجتازها البلاد العربية ، **لا يجوز لمفكري العرب ان يتلهوا بالحديث عن المدينة الفاضلة او المستقبل المسحور . ولا ينبغي لهم ان يعتقدوا انهم بلغوا الامانة وادوا الرسالة اذ ما رسموا صورة المستقبل البعيد، أو أسرفوا في تحليل الحاضر القائم أو تغنوا بماض غامض . ان ركب الامة العربية قد انطلق ، والجمع قد سار، ولم يعد الحين حين تأنق فكري على مهل واستئناء، ان الركب السائر ، يريد ان نصوغ حماسته عملا ونتاجا . انه يعرف الهدف البعيد ، ولكن ما يزال يفتقر الى الاقنية الملموسة المؤدية الى ذلك الهدف . وهو يملك الشعلة ، ولكن لا يجد الوقود الحي الذي يقدمه لاذكائها .**

وواجب الطليعة ان تحبس وثباته لتقلبها عملا ايجابيا مباشرا ، وان تعلمه الفعل الصامت الصبور . ما واجبها ان تدله على الافق البعيد فحسب ، بل واجبها فوق هذا ان تحدد له السبل والتخاريم المؤدية الى ذلك الافق .

ان النفس الطويل ، النفس الصابر الدائب ، هو ما نحتاج الى تربيته في اجيالنا الصاعدة قبل كل شيء . علينا ان نعلم هذه الاجيال ان الوعي ، على قيمته وشأنه ، ليس كل شيء في نهضة الامم . فهذه النهضة بناء ، بناء في كل ميدان ومجال . وهذا البناء يحتاج الى أناس يعملون صابرين في كل مجال من مجالات الابداع ، ويدركون ان الاماني لا تخلق الامم، وان الامور لا تتغير بعصا سحرية، وان لا بد من البدء بالخطط القريبة ، وبتكوين المهادات اللازمة لها .

✶

بعد ان بلغت البلاد العربية حدا كبيرا من الوعي وادراك الامور ، لم تعد في حاجة الى طليعة ملهمة بقدر حاجتها الى طليعة منظمة للالهام . ان على هذه الطليعة ان تدرك انها تعيش في غير زمانها ، وتتأخر عن الركب ، اذا حسبت انها ما تزال في طور انها ما تزال في طور بعث الشعور واذكاء الروح . فالشعور قد بعث الى حد كبير وهو يملك على اية حال القوة اللازمة لاتمام انبعاثه ، وكل ما نخشاه عليه الا يجد منصرفا له . والروح قد اذكيت الى حد بعيد وانطلاقتها كفيلة ببقائها واستمرارها ، وما نخافه عليها ان تعمل في فراغ .

ان الايمان يقوى ويضعف ، وهو يقوى عن طريق واحد ، طريق المعاناة . فهو بالعمل وبالسعي ، ينشط ويشتد . وهو يضعف ويهزل ان ظل كالرحى تطحن قرونا . فلنقدم للجيل الجديدة **مجالات محدودة واضحة** ينطلق فيها ايمانه ، ولنزوده بالوسائل اللازمة للعمل في هذه المجالات .

**ان النضال اليوم نضال علمي منظم مدروس . وهيهات ان يؤدي الى مستقره ان ظل فورة من اجل العام ووثبة نحو المستقبل . لم يعد هذا النضال صيحات تشرئب الى السماء ، بل غدا في القرن العشرين ضربات معول توجه مباشرة نحو الارض ( ✶ )**

**عبدالله عبد الدائم**

**(✶) محاضرة القيت في الشهر الماضي بدعوة من هيئة المحاضرات في كلية المقاصد الاسلامية ببيروت**

وبعد طويل الانتظار

صدر :

سقط المتاع

الجزء الاول

من ديوان المغفور له

**الشيخ عبد الحسين صادق**